البنيـــــــــة النفسيـــــــــة للفاشيـــــــــة و الشخصيـــــــــة التسلطيـــــــــة

تحليـــل النـموذج الصهيـوني

أحمـــــد مصطفـــــى جابـــــر – دمشـــــق، سوريـــــا

في تحليل صار يعتبر كلاسيكيا للفاشية انطلق أدورنو الإيطالي في مقياسه الشهير[1] من فرضية مفادها أن الاعتقادات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية تشكل نمطا واسعا متماسكا يعبر عن نزعات عميقة في الشخصية، وفسروا البناء الشخصي لأصحاب الشخصية التسلطية من خلال ضعف (الأنا) التي تتوق إلى بناء قيمي سليم مما يدفع لتعويض ذلك بالبحث عن مصادر خارجية يستندون إليها في خلق بناء قيمي شكلي خاص بهم، وان كان في حقيقة الأمر لا يعبر عن قدرة ذاتية حقيقية متميزة. وهكذا بإمكاننا تلخيص سمات الشخصية التسلطية عند أدورنو وزملائه: بالتقليدية والالتزام بقيم الطبقة الوسطى المحافظة والقبول غير النقدي بالسلطات ورفض ومعاقبة الخارجين على القيم التقليدية ومعارضة التفكير التأملي والتمسك بالمزاجية والنمطية وإسقاط الدوافع الانفعالية واللا شعورية على الخارج والافتتان بالقوة واحتقار العلم والتركيز المفرط على القضايا الجنسية [2].

وقد انتقد روكيتش الاستناد إلى هذا المقياس (أدورنو وزملائه) لقياس الفاشية لأنه نشر أصلا على أساس أنه مقياس للتسلطية ، وقد اعتبر أن الانتقال من الفاشية إلى التسلطية يمثل انتقالا من الخاص إلى العام، فالتسلطية عند ميلتون روكيتش أوسع من الفاشية التي يعتبرها (تسلطية يمينية)[3] وهو يرى أن مقياس الفاشية يقيس جانبا واحدا من جوانب التسلطية مركزا في تحليله على التصلب والجمود.

ويشير التصلب إلى عجز نسبي عن تغيير الشخص لسلوكه واتجاهاته عندما تتطلب الظروف الموضوعية ذلك والتمسك بطرائق غير ملائمة للسلوك والشعور، و التصلب يمثل مقاومة اللجوء إلى أنواع جديدة من الاستجابات التكيفية[4] . ويتصل التصلب بمفاهيم أخرى أهمها (عدم تحمل الفوضى) الذي تحدث عنه فرانكل برونشفيك والمقصود به الرغبة بالتعامل مع كل شيء على أنه أبيض وأسود وهكذا يقسم الفاشي العالم إلى أقسام، فهناك أنا والآخر، نحن والغوييم.

ويرتبط التصلب بمفهوم الجمود أي «مقاومة التغيير بالنسبة للأنساق كلية المعتقدات فالجمود خاصية للنسق الكلي للمعتقدات التي تعيق صاحبها عن إحداث تغيير[5] فمرجع سلوك الذهن الجامد هو النسق الكلي للأفكار أكثر منه فكرة واحدة.

ويشير مفهوم الجمود عند روكيتش إلى مجموعة من المظاهر السلوكية المعرفية المتعلقة بالأفكار والمعتقدات المنتظمة في نسق ذهني مغلق مسبقا. فهو طريقة منغلقة على التفكير مرتبطة بأيدلوجية، بصرف النظر عن مضمونها، وبنظرة تسلطية في الحياة وعدم احتمال الأشخاص الذين يختلفون ويعارضون المعتقدات الخاصة بأصحابها.

يرتبط الجمود بنظرة الفاشي إلى ثبات العالم، فالعالم عنده كيان ثابت معطى مسبق، وهو على صورته (للمصادفة) يتعين عليه مجرد التكيف معه، وأي خروج عن هذه القاعدة تحيل الفاشي إلى الاضطراب والبحث عن موازنة فورية وإعادة تقويم لاستعادة المنظور الملائم والمألوف، وهكذا بعد استخدام كل الحيل تلجأ الفاشية إلى العنف المتسم إرهابا.

ونظرة الفاشي (الصهيوني نموذجا) إلى ثبات العالم تنعكس في الصورة المنمذجة التي يقدمها عن الآخر، فالعرب والمسلمون في نظره، متخلفون، بدو مغامرون، محبون للجنس بشكل مثير للاشمئزاز، كسالى وخاملون، وشرقيون عموماً، والفلسطينيون في الذهنية الصهيونية إن لم يكونوا ديداناً أو صراصير حسب الحاخام عوفاديا يوسف، فهم إرهابيون، قتلة، مخبولون، أفاع وكلاب، معادون للسلام.

واستكمالا لنظرة أشمل يركز روكيتش على (المجاراة) (conformity) فإن الشخص يستجيب كما تريد منه الجماعة أو طبقا لتوقعاتها، وهو لا يعتقد فيما يفعله بصورة واقعية، فهو يساير الجماعة دون اتفاق (بينه وبين نفسه) خاصة معها[6].

يحيل هذا المنطق إلى نقص في المرونة الفكرية، يرتكز على ثوابت ومسلمات لا تقبل النقاش لأنها محاطة بدلالات وجدانية وشحنات لا شعورية تجعل كل نقاش مهدد لثبات الحياة ومعناها.

ترتبط هذه الصفة بسلوك الاستبرار الذي يتبعه الفاشي وهي عملية نفسية علائقية تهدف إلى تبرير العدوان على الغير من خلال تأثيره، كما يحدث، رد فعل براءة للذات، وعندما تضطرب شخصية الفاشي وتتبدد سكينته لأسباب موضوعية أو ذاتية فان السلوك المتوقع هو البحث بكل الوسائل عن إعادة النظام للعالم الذي ينهار من حوله واستعادة السكينة والأمن الداخلي، فيبحث عن آخرين مطابقين له، يجدهم في عشيرته أو حزبه أو شيعته، ويشكل هؤلاء الآخرون صورة تكاد تكون امتداداً بيولوجيا للأم الحامية، ويلعبون دور (الحضن الطيب) حسب تعبير ميلاني كلين[7].

حيث يسود التماثل ويطغى نقاء المجموعة، ويتجسد النظام الطبيعي، و نلاحظ من جديد أن المجموعة التي تضيق بأي نقد تشعر أنها مهددة نرجسيا عندما يخاطر أحد بمناقشة قناعاتها أو بإبراز نقاط ضعفها.

قد يكون مفيدا أن نلفت النظر إلى أن من يقرأ تحليل لوكاتش المذهل للآثار السيكولوجية للمعاناة الألمانية إثر هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، يلحظ بين السطور تاريخ الولايات المتحدة بعد 11 أيلول، لقد أنتجت هزيمة الحرب الأولى هتلر وحزبه النازي، موسوليني وحزبه الفاشي وتحولت الأنا المضطربة الألمانية والإيطالية إلى نظام فاشي والمؤشرات جميعها تحيل إلى هذه الأنا المضطربة نفسها المسيطرة على المجتمع الأمريكي بعد 11 أيلول فيصبح التحرش بالفاشية أشبه بإيقاظ وحش نائم وربما تكون الحسنة الوحيدة (بتحفظ) التي تنتج عن هذا التحرش، عن مهاجمة العالم المنظم للفاشية هي أنه في لحظة البحث عن الانتظام وإعادة الضبط لنظامه وسلوكه يكشف عن وجهه الحقيقي وتتبدد دفعة واحدة جميع الأقنعة المستعارة التي تم الركون إليها للاختباء خلفها في لحظات الهدنة مع العالم النازع للتمرد.

الفاشيـــــة باعتبارهـــــا استبـــــداداً:

يشير التحليل (النفس – اجتماعي) أن الفعل المؤسس للاستبداد هو فعل

يكتسب الاستبداد معناه السيئ من كونه اغتصابا واحتكارا للحق المشترك مع الآخرين، فهو فعل يقوم على الاستحواذ والاستيلاء والسيطرة على شيء هو حق مشترك مع الغير[8].

والاستبداد في إفادته معنى الانفراد فإنه يتضمن دون شك نفي الآخر وعدم الاعتراف به مشاركا في الحق العام

والاستبداد يحول العلاقات بين الأفراد من علاقات تحكمها وتنظمها قوة الحق إلى علاقات تضبطها محض القوة.

نجد توافقا كبيرا وشبه تطابق ما بين الاستبداد والشمولية بمحتواها الفاشي، فإذا كانت الشمولية ترتكز على عنصر التركز حول الذات (الإيكوسنترية) ما يعني الميل إلى رد كل شيء إلى الذات، فهي أيضا ترتكز على الإثنوسنترية ما يحيل إلى ميل للحكم على كل شيء بمعايير الرهط الاجتماعي الذي ينتمي إليه الفرد[9].

أو كما يلحظ ماكس فيبر[10] أن المؤسسة الاستبدادية هي مفهوم نوعي يجمع سمات لطبقة كاملة من المؤسسات المتخصصة في التحفظ على الأشخاص والضبط الاستبدادي لنمط حياتهم. وفي مقال نشره الفيلسوف الإيطالي جيوفاني جنتيلي بعنوان «الأسس الفلسفية للفاشية» استعمل صفة التوتاليتارية totalitarian بمعنى الإحاطة والشمول واحتواء كل شيء في صفة للنظام الفاشي[11].

أما الاستبداد بمعناه النفس فرويدي فقد لحظ أنه يستعمل بالترادف مع مفهوم المتسلط، باعتباره شخصية مرضية، تتصف بالزورية (البارانوئيدية paranoid) بمعنى الاتصاف بالتوقع الدائم أن الآخرون ينتقصون من قيمة الفرد، أو يحاولون إلحاق الأذى به أو تهديده، على شك دائم بإخلاص وصدق المحيطين به دون مبرر وفرط باليقظة والانتباه والانزلاق بسرعة إلى الحنق ووهم الشهرة وعدم التسامح مع أي سلوك يتم تقييمه على أنه مهين، وعدم الثقة بالآخرين بسبب الخوف الدائم من إمكانية استغلال أي معلومة ضده، نلاحظ هنا تطابقا تاما مع سيكولوجيا الحصار والبحث عن الأمن واختراع الأعذار لتشديد الحصار الداخلي واتخاذ موقف عدائي تجاه الخارج. لقد رأينا أن الصهيونية تضيق بأي نقد، وتغضب بشدة إزاءه فيصبح الناقد إذا كان يهوديا وكارها لذاته، ومرتدا عن قيم الشعب اليهودي، أما إذا لم يكن يهوديا فهو ببساطة (لا سامي) ويعلم الجميع كيف تستخدم الصهيونية المحرقة بشكل تجاري أرعن لاحتكار المأساة وتظهير نفسها باستمرار محتكرة دور الضحية لليهود، مبررة سلوكها مسلك الجلاد بهذا الاحتكار الوقح.

أما النرجسية فهي صفة أخرى من صفات هذه الشخصية، وباختلاطها بالتعصب بأشكاله تعطي نتائج كارثية، لتتميز بالتعجرف والنقص في التعاطف وفرط الحساسية تجاه آراء الآخرين و إعزاء العنصر الايجابي للنفس وإسقاط النوازع السلبية على المختلف الذي لا ينتمي للرهط فتبالغ في إنجازاتها وحسناتها وتتوقع من الآخرين أن يعترفوا لها بالجميل بصورة خاصة بمبرر أو بدونه ، وتستحوذ على النجاح والشهرة والتألق هذا النمط من الناس غالبا ما يمتلك مشاعر مزعزعة بالقيمة الذاتية وتعتبر آراء الآخرين واعترافهم به مهمة جدا، ويستجيب لأي نقد سلبي، بالغضب أو بمشاعر الإهانة أو الإذلال ويميل هذا النمط لاستغلال الآخرين و استخدامهم جسرا لتحقيق أهدافه الخاصة مع نقص في التعاطف معهم أو الحساسية لهم[12] لذلك تعمل الفاشية على خلق المسافة مع الآخرين والبعد عنهم، فكلما ازدادت المسافة بين (الأنا والآخر) كلما اطمأنت الأنا وخف قلقها.

والسادية من جهة أخرى سمة لازمة للفاشية (نتحدث هنا عن الفاشية كنظام وبنية وليس عن أفراد منتمين إلى الفاشية) ، بتعبيرها عن سلوك عدواني وعنيف وقاس تجاه الآخرين من اجل تحقيق السيطرة في العلاقات الخارجية ويحافظ أصحاب هذا النمط على السيطرة على الآخرين من خلال وسائل تتراوح بين الإرعاب والإرهاب اللفظي وصولا إلى سوء المعاملة الجسدية، وغالبا ما يستمتعون بإيلام ضحاياهم أو إهانتهم وفي الغالب يقيدون حرية الأشخاص مع ولع شديد بالأسلحة. وهكذا تصبح السادية حسب إيريك فروم[13] «الشغف بالحيازة على رقابة موجود حي رقابة مطلقة»، فإرغام أحد أن يتحمل الألم والإذلال دون أن يكون بوسعه الدفاع عن نفسه يكون مظهرا من مظاهر الرقابة المطلقة.

لقد شاهد العالم بأسره ذلك المظهر–الذي تكرر كثيرا في الحقيقة– عندما اقتحمت القوات الإسرائيلية سجن أريحا وأرغمت عشرات الأشخاص العزل على الوقوف عراة أمام عدسات التلفزة في تلذذ واضح بعذاب الضحية وبدون أي مبرر سوى الإذلال والرغبة في إظهار التحكم الكامل عبر تحطيم أرواح البشر، وأكثر من ذلك في سلوك تصوير الضحايا وهي من سلوكيات الفاشيين المعروفة في الهند وألمانيا وإسرائيل والشيشان والأمريكتين والعراق.

كل هذا يشير إلى ضعف الشخصية الفاشية في أعماقها، فالقوة تعني شخصية واثقة من نفسها مرنة تقبل النقد من الآخرين، منطقية وديمقراطية، تحترم إمكانات الغير، بينما الشخصية الفاشية تتستر خلف جمودها وسلطويتها من أجل قمع الآخرين وعدم إظهار ضعفها، عاجزة عن النقاش المرن الديمقراطي وعاجزة عن تقبل الآخرين وتقبل الحقائق المنطقية وتصبح القوة هي المرجع الأساس للعلاقة بحق الآخرين والموقف منهم.

البنيـــــة النفسيـــة للنظـــام الفاشـــي في إسرائيـــل:

في إحدى مقابلاته سئل الكاتب البيروني الكبير ماريو فارغاس يوسا فيما إذا كان «يمكن القول أن الشعوب والطغاة يتقاسمون مسؤولية الأنظمة الاستبدادية؟ » فأجاب «هل كان باستطاعة فرانكو أن يكون موجودا دون الأسبان، هتلر دون الألمان، ماو دون الصينيين؟ بإمكان جميع الشعوب في بداية أي نظام استبدادي أن تقاوم، ولكن الحقيقة أن أغلب الديكتاتوريين ينجحون لبرهة في جذب وإغراء أكبر شريحة من الجماهير، وإذا استثنينا الدعم العسكري نجد أن الطغاة يأتون لأننا نطلبهم، كان تروجيللو شعبيا جداً إلى درجة أن الشعب الدومينيكي لو كان التقى القتلة ليلة اغتياله لافترسهم، ما أريد توضيحه أن الديكتاتورية ليست فقط الإذلال والتعذيب والقهر وإنما هي أيضا انهيار بطيء لمجتمع بأكمله»[14].

أظن أن قارئا حصيفا بإمكانه أن يطور بقليل من التمعن أطروحة يوسا الآنفة، فبالنسبة للنموذج الإسرائيلي ليس الأمر مجرد ديكتاتور جاء إلى سدة الحكم وإنما هو موضوع مجموعة بشرية كاملة تجمعت من أطراف الدنيا لتقيم دكتاتوريتها على أنقاض شعب آخر، وهكذا لم يكن انتخاب فاشي كشارون أو ليبرمان أو شاؤول موفاز أو بيرس مجرد صدفة في تاريخ السياسة الشعبية الإسرائيلية، وإنما هي النتيجة الطبيعية التي يفرزها مجتمع من هذا النوع، لقد حصلت الأحزاب المعادية كليا للشعب الفلسطيني والسلام على ما يزيد على 50 صوتا في الكنيست السابعة عشرة، إذ حصل شاس الحزب الديني الرجعي على 12 مقعدا، والليكود اليميني المتطرف على 12 مقعدا و الحزب الفاشي الذي لا يخجل من الإعلان عن نفسه إسرائيل بيتنا على 11 مقعداً، والاتحاد الوطني والمفدال على 9 مقاعد وحزب المتقاعدين بقيادة مجرم الحرب ايتان على 6 مقاعد وهذا كله من أصل 120 مقعدا دون ذكر الفاشيين في كديما والعمل وميرتس أمثال موفاز وديختر ويعالون وبيرس وتساهي هنغبي وغيرهم كثير.

ولكن كيف يمكن أن تتحول جموع غفيرة من الناس إلى منظومة منضبطة للقتل والإرهاب والكراهية؟ لقد ذكرت حنة أرندت إن «افتتان

الدهماء بالشر والجريمة افتتانا أكيدا ليس بالأمر الجديد، إذ طالما ثبت أن الرعاع يرحبون بأعمال العنف قائلين بإعجاب "لئن كان ذلك غير جميل فإنه بالغ القوة بالتأكيد" »[15] حنة آرندت تقدم مشروعا للإجابة في تحليلها «لتفاهة أو بساطة الشر»[16] حيث عندما تمت محاكمة (آيخمان) أحد جلاوزة النظام النازي الذي لم تكن علاقته سلبية تماما بالصهيونية وقادتها، والذي تسبب بموت الآلاف في غرف الغاز، بحث الكثيرون عن الخطأ الأساسي في التركيبة النفسية لهذا الإنسان، فلم يجدوا شيئا، فالرجل «كان يقوم بعمله فقط»، كان بيروقراطيا ينفذ التعليمات على أفضل شكل ممكن، على العكس تماما، الرجل كان منظما ونظيفا ولطيفا في تعامله، يذكرنا هذا الوصف بتعليق يوسي سريد زعيم ميرتس على «دماثة ولطافة وحسن أخلاق» الفاشي ليبرمان بعد عشاء حميم بينهما، ولكن ليبرمان ليس مجرد أداة للنظام بل جزء لا يتجزأ منه. ولا بد من الاعتراف أن هذا التحليل قد يفارق تحليلنا السابق لشخصية الفاشي. ولكن استكمالا لتحليل أرندت أثبتت تجارب ستانلي ملغرام حول (مدى الانصياع للسلطة) [17] أن معظم الناس العاديين يمكن أن يتحولوا إلى وحوش من الناحية الأخلاقية، يعذبون الأبرياء بدون روادع أخلاقية تذكر، إذا وضعوا في ظروف مناسبة من حيث طاعة السلطة، تصرفات الجنود الإسرائيليين الشبان الذين لا تتجاوز أعمارهم الثامنة عشرة على الحواجز التي يقيمها الجيش الإسرائيلي من تنكيل وتعذيب وإهانة للفلسطينيين تندرج تحت هذا التحليل.

وقد توصل البروفيسور دانيئيل بارطال من جامعة تل أبيب ورئيس المنظمة العالمية لعلم النفس السياسي[18] إلى النتائج التالية: 1- الشعب اليهودي في إسرائيل غير طبيعي، مفرق ويعاني من انقسام حاد، معسكر قومي جبري يقول بـ (لا حل للنزاع في الشرق الأوسط) ومعسكر حمائمي مضغوط هستيري وكلاهما يهرب من الواقع، الأول يتنكر لعلاقة السلام والثاني يهرب من المسؤولية إلى عالم الخيال. 2- عن السبب النفسي للخوف من التغيير يقول بارطال أن إسرائيل استثمرت الكثير في النزاع مع العالم العربي من ناحية عسكرية واقتصادية ومعيشية وتم تشديد أيدلوجية تفسر وتبرر هذا السلوك، من الصعوبة تغييرها«أسهل أن نواصل رؤية السلبيات لدى الخصم من أن نبذل جهدا لرؤية ألوان رمادية داخل اللون الأسود». 3- استذكر بارل طال «في تجربة وضع المجتمع الإسرائيلي على أريكة المحلل النفسي» أبحاثا كان أنجزها في السابق ودلت على أن الأطفال اليهود منذ عمر الثانية والنصف يتكون لديهم تصور سلبي عن العرب ويبقى العربي في تصورهم مفردة ملازمة لصفات سلبية شريرة. وقد فحص منذ أكثر من عشر سنوات كتب التدريس العبرية فوجد أنها لا تنفك تكرس النزاع وتمجده، وفي فحص متجدد عام 2002 وجد أن كتب التدريس العبرية ما تزال تعاني من التثبت بالماضي، ويقول «يبدو أن السلام بقي خارج حدود المدرسة».

عقـــــد الصهيونيـــــــــة:

يعرف (هيسنر)[19] العقد بأنها ليست أشياء غريبة ملقاة في أعماق الوجود، وقابلة للصعود إلى سطحه، بل منظومات من التصرفات الحاضرة بصورة مستمرة، هي أجزاء من التصرف لم تكن أبدا موضع الاندماج بصورة تامة، معزولة أو مجزأة، مستمرة مثلما كانت قد أثيرت متصلبة جاهزة على نحو مستمر لأن تنطلق.

ثمة ظاهرتان ترتبطان بالعقدة: الأولى شمولها أوضاعا أخرى غير الأوضاع التي تثيرها بصورة مباشرة، والثانية هي انطلاق رد الفعل لمجرد إشارة تلخص وضعا متميزا.

تنزع العقدة إلى نقل العدوى إلى كلية الوجود، مثل هذا التشوه للواقع وللسلوك العقدي مميزان أساسيان الأول انه سلوك مفرط يتجاوز الحد، مثال إضافة لإضفاء المأساوية على الوضع، والثاني انه سلوك ذو قوالب جامدة رتيب ومتكرر[20]

عقـــــدة المســـــادة: تفكيـــــك أسطـــــورة

ارتبطت الأسطورة المسماة بهذا الاسم بقصة رواها مؤرخ واحد يدعى يوسيفوس فلافيوس من التابعية الرومانية وقد رافق الجيش في حملته على فلسطين في القرن الأول للميلاد[21]. وهناك روايتان للمسادة، واحدة سائدة، مختلقة مزيفة، وأخرى رواها يوسيفوس وإن لم تكن بالضرورة حقيقية لكنها تلتزم بمعايير التأريخ الكلاسيكي الرصين.

ومفاد القصة حسب يوسيفوس: أن مجموعة من العبرانيين تحسبوا لمواجهة الرومان فصعدوا إلى جبل مسعدة قرب البحر الميت مع عوائلهم من نساء وأطفال، وتحصنوا في قلعة أعلاه وبلغ تعدادهم 960 شخصا، وتضيف الرواية أن هؤلاء فضلوا الانتحار وقتل نسائهم وأطفالهم بأيديهم اذا ما اقتحم الرومان القلعة على الاستسلام.

وقد أشار يوسيفوس(المؤرخ الوحيد للحادثة) أن هؤلاء كانوا مجرمين وقطاع طرق، وهم من جماعة السيكاري المتعصبة اليهودية التي ازدهرت في زمن ما أصبح يعرف بالثورة الكبرى ضد الرومان (66-73م) ودعت إلى ممارسة الإرهاب والاغتيالات، وارتكبت مجزرة عين جدي ضد الفلسطينيين آنذاك، ووصفها يوسيفوس«إنها عصابة من القتلة هلكت في أعلى المسادة»[22].

رغم وضوح النص التاريخي حول حقيقة المجموعة التي هلكت في المسادة إلا أن قادة إسرائيل ومؤرخيها وكتاب صهاينة حولوا القصة إلى دراما شعبية إسرائيلية عبر التحرك باتجاهين: أركيولوجي وفولكلوري.ورغم فشل الإثباتات الحفرية وخبو الحماس العلمي للقصة إلا أن الصهاينة واصلوا حماسهم الفولكلوري عبر العمل على استثمار قصة المسادة وتحويلها إلى دراما شعبية تستقطب عواطف اليهود وغير اليهود من ذوي الإيمان التوراتي. فتحولت القصة إلى (أسطورة قومية) ترمز إلى (نهوض قومي يهودي) وتشبع نوعا من الشرعية التاريخية على وجود دولة إسرائيل، ما يولد قناعة لدى المستوطنين اليهود بأنهم أحفاد ماض مجيد، وأن استعادة هذا (الماضي المجيد) لا تتم إلا بتعزيز سيادة دولة إسرائيل وضمان استمرارها، وكرمز له هذا البعد تولد قصة المسادة إحساسا بالتناغم والتضامن بين المستوطنين القادمين من خلفيات حضارية متباعدة. وقد مارست الرواية الأسطورية التأثير على ملايين الإسرائيليين بمن فيهم شخصيات معروفة في النخبتين السياسية والعسكرية.

في تجربة شخصية لاكتشاف حقيقة المسادة أتيح لنحمان بن يهودا المؤرخ الإسرائيلي أن يكتشف أنه قد تم استغلاله وخداعه في نظام التربية الإسرائيلي وفي الجيش وفي منظومة معرفية متكاملة حيث يقول إنه حصل عن المسادة على معرفة «لم تكن خاطئة وحسب، بل كانت شديدة التحيز أيضا»[23]. حيث «لم تكن المسادة مجرد حكاية تروى بل زودت هوية جيلي من اليهود الإسرائيليين بعنصر هام من عناصر تعريف هويتنا اليهودية والإسرائيلية».

ويشير بن يهودا هنا إلى منظومة المعتقدات الهامة التي تم تسريبها له ولمئات الآلاف غيره واتضح إنها قائمة على سلسلة من الغش والمزاعم المغرضة والمزيفة أيضا، هذه المنظومة لا تشكل بناء بالغ الأهمية لتطوير عقول الشباب فحسب بل تشكل حجر الأساس لشعب برمته.

ولقد شكك الكثير من العلماء ليس في صحة النسخة الصهيونية من الرواية فقط بل في صحة رواية يوسيفوس الأصلية، وأبرز هؤلاء عالم الآثار اليهودية شعيا كوهين الذي أشار إلى أنه شخصيا عثر على ست عشرة رواية مشابهة لرواية يوسيفوس ترجع إلى حضارات مختلفة وتنتمي إلى نفس العصر الذي عايشه المؤرخ. و الأسلوب الملحمي الذي استخدمه يوسيفوس كان هو الغالب في تلك الفترة[24] ناهيك عن أن يوسيفوس شخصيا لم يكن شخصا جديرا بالثقة.

وكان برنارد لويس أحد أوائل الباحثين منذ 1975 الذين اتخذوا موقفا صارما من رواية المسادة، وهو بانتمائه إلى المنظور الاستدلالي الاجتماعي في تفسير الذاكرة الجمعية يؤكد أن الرواية الحديثة للمسادة تشكل إحدى الحالات في ما يدعوه «التاريخ المختلق». بدورها قدمت شارغل عام 1979 ما يمكن اعتباره أول محاولة تفصيلية لفهم الرواية الأسطورة للمسادة كأسطورة سياسية تقوم على حدث تاريخي محدد ثم تستخدم التحليل الوظيفي حسب كتابات دوركهايم ومالينوفسكي للقول أن أسطورة المسادة لعبت دورا حاسما في المجتمع الإسرائيلي كوسيلة لتحقيق الشرعية الاجتماعية والدمج في المقام الأول. حيث أن التماهي مع المسادة يؤكد ادعاء اليهود بالشرعية على هذه الأرض حسب أطروحة برونر وغورفين (1984) التي تفيد أن أسطورة المسادة مثلت غلافا خارجيا للأيدولوجيا كما أسهمت في خلق الانضباط الاجتماعي وبلورة الهوية الفردية والقومية وبلورة صلة روحية قوية مع يهود اعتبرهم الإسرائيليون محاربين شجعان قبل ألفي عام مما منحهم الإحساس بالاستمرارية والتواصل مع الماضي البعيد ومع الأعمال السامية البطولية.

وفي كتاب صادر عام 1992 طرحت أنيتا شابيرا فرضية أساسها القول أن استعانة الصهيونية العلمانية بقصة المسادة وتوظيفها كان المقصود منه إضفاء الشرعية على استخدام العنف[25] .

ولعل ذلك يتجلى في أن النوازع اللاواعية لدى قادة إسرائيل تكشف عن أزمة مع الذات وتشير إلى نزوع نحو انتحار جماعي. حيث تأخذ الأسطورة طابع (قوة محركة) تدفع قادة إسرائيل نحو تحقيق تماثل بين مصير أبطال الأسطورة ومصيرهم.

وفي سبيل هذا التماثل يعيش هؤلاء القادة في حالة هوس للربط بين واقع خيالي ماض وواقع حالي لا بد من جعله بطوليا، وكان الصحافي الأمريكي ستيوارت ألسوب في النيوزويك إبان السبعينيات أول من لاحظ نزوع قادة إسرائيل في مسلكهم السياسي والدبلوماسي نحو محاكاة الحالة الانتحارية الماثلة في قصة المسادة. جاء ذلك في معرض تعليقه على مواقفهم المتشددة أثناء المفاوضات مع مصر أواسط السبعينيات. وقد ردت غولدا مائي على ذلك الصحفي في مؤتمر صحفي أثناء زيارتها لواشنطن فقالت «نعم يا سيد ألسوب نحن عندنا عقدة المسادة، وعقدة الهولوكوست وعقدة أفران الغاز»[26].

فـــــــــرادة الضحيـــــــــــة:

تعتبر فكرة الضحية مسألة حاسمة في تمثيل الواقع اليهودي والهوية اليهودية من زاوية مشروع التحرير الصهيوني[27] «الذي استند بحزم إلى أسطورة ضرورة تخليص اليهود من منفاهم ومن عذاب المنفى عبر جمعهم في أرض الميعاد» أصبح كل مطلع يعرف زيف هذه الأساطير ولكن تحليلها باستمرار يبقى ضروريا لكشف وقاحة الصهيونية وزيفها في سبيل دحضها النهائي.

ورغم ولع مؤرخي الصهيونية وأنصارها برواية تاريخ اليهود كضحايا أبديين لكراهية دائمة وشاملة، إلا أن فكرة أنه بالإمكان رواية تاريخ ضحايا آخرين، بل وأن جزءا منهم هم ضحايا «القومية»اليهودية، تثير معارضة عنيفة، ففي حالة المؤرخين الليبراليين تصيبهم مثل هذه الطروحات بعمى أبستمولوجي والى بلبلة فكرية، وتتكشف عندها عدميتهم ولا عقلانيتهم ومفارقة طروحاتهم للمنهج العلمي، وهكذا ينكشف الخطاب الصهيوني، وما يلحق به عن أعراض عدم الراحة من مجرد فكرة أن اليهود أنفسهم أنتجوا ضحايا، والتفسير السائد للتاريخ لا يفسح مجالا للحديث عن اليهود كمضطهدين جماعيين على امتداد سنوات التاريخ الصهيوني منطلقا من أن اليهودي واستمراره الإسرائيلي هو ضحية فقط.

الهولوكوست: فـرادة الضحيـة وضعـف المنفـى

تعتبر دراسة (الهولوكوست) فرصة لإلقاء الضوء على حالة فريدة من سياق مختلط شديد التعقيد من عوامل سيكولوجية وسياسية واقتصادية في إطار أيدلوجي تضليلي نادر!!

تشير القصة الرسمية الإسرائيلية إلى أن «الكارثة (بالعبرية شؤآة) هي الفظائع التي حلت بالشعب اليهودي إبان الحكم النازي في أوربا في الفترة من 30 كانون ثاني 1933 عندما أصبح هتلر مستشارا لألمانيا وحتى 8 مايو أيار 1945 (يوم النصر) عندما انتهت الحرب في أوربا.

و بغض النظر عن حقيقة الهولوكوست التي ليست موضوع هذا البحث، ولكن المهم هنا هو الطريقة التي تم خلالها استبطان الهولوكوست كمركب داخلي وعنصر أساسي في الشخصية اليهودية الحديثة. وإظهار كيف انه (وكما في موضوع المسادة) تم تصوير المحرقة من قبل الصهيونية بشكل أيدلوجي ينطبق عليه ما قاله جون ستيوارت مل منذ زمن بعيد عن أن «الحقائق التي لا توضع موضع التحدي المستمر ستتوقف في نهاية المطاف» عن أن تمتلك وقع الحقيقة، لأن تلك الحقائق ضخمت حتى غدت باطلا»[28].

ولم تستخدم حكاية الإبادة النازية لليهود لتبرير السياسات الإجرامية لدولة إسرائيل كما يذهب فنكلشتاين[29] فحسب، بل أيضا لإعادة صياغة الهوية اليهودية وتشغيل ماكينة بوتقة الصهر المروعة، التي لا تقل بشاعة في الحقيقة – وان رمزيا– عن (غرف الغاز) الهتلرية، وقد يبدو هذا حكما أخلاقيا لا يليق بدراسة تتوخى العلم منهجا، غير أن دراسة تاريخ الجماعات اليهودية المهاجرة إلى إسرائيل وخصوصا اليهود الشرقيين، وعمليات محو ذاكرتهم وتاريخهم وإعادة إنتاجهم كأجزاء من آلة الصهيونية التي لا ترحم تثبت هذا الحكم الذي ذهبنا إليه[30].

هكذا أصبحت «ذكرى الإبادة النازية بعد أن مررت من خلال موشور أيدلوجي أداة فعالة في يد القيادة الإسرائيلية واليهود في الخارج»[31].

وقد لاحظ الكاتب الإسرائيلي المعروف يواس ايفرون أن «الوعي بالهولوكست»هو في الواقع «عملية تلقين دعائية رسمية، تمخض عنها شعارات وتصورات زائفة عن العالم، وليس هدفها فهم الماضي على الإطلاق بل التلاعب بالحاضر».

وقد صيغ الهيكل الأيدلوجي للهولوكست على ما يذهب فنكلشتاين على مذهبين جامدين (دوغماوين) مركزيين، الأول: أن الهولوكوست تشكل حدثا تاريخيا فريدا بصورة مطلقة في تأكيد على (الفرادة) والثاني أن الهولوكوست تشكل ذروة كراهية أبدية لا عقلانية يكنها الأغيار لليهود.

وهنا بالضبط يأتي القبول الصهيوني بمصطلح (الهولوكوست) تعبيراً عن عملية (إبادة اليهود) من قبل النازيين حيث أن في هذا القبول تأكيد على المذهبين الآنفين، فالنازيون الأغيار عبروا عن ذروة الكراهية اللاعقلانية لليهود (لا سامية مطلقة) من جهة، واختيار اليهود (كضحية) للإبادة النازية تعبر عن فرادة اليهود الذين حرقوا لأنهم أكثر الشعوب قداسة (قربان مقدس بل الأكثر قدسية).

وهنا يبرز الاستقطاب العنيف للهولوكست في البنية الذهنية لليهود المعاد اختراعهم صهيونيا، ما يعني تمجيداً للكارثة واحتفالاً بها كتعبير عن الفرادة، وكنتيجة للفرادة من جهة وما بين رفض لها لما تمثله من ذكرى اليهودي الضعيف في المنفى، المساق إلى الذبح بدون مقاومة وما يتعارض به هذا المفهوم مع فكرة العبري الجديد الرائد الاستيطاني المحارب، وكان أيخمان النازي الشهير في محاكمته الأكثر شهرة بعد

اختطافه إلى (إسرائيل) قد أثار الكثير من الدهشة عندما صرح بـأن سلوك الضحايا اليهود كان مدهشا حين لاقوا حتفهم بدون مقاومة، وفـي النقاشات اللاحقة نظر الجيل الجديد من أبناء الاستيطان الصهيوني إلى هذا السلوك باعتباره سلوكا نموذجيا ليهودي الجيتو الضعيف (الـذي يجـب استئصاله) مقابل العبراني الجديد القوي.

الاستقطاب العنيف يبرز في معادلة مستحيلة إذ كيف يمكن استئصال هذه الشخصية، وفي الآن ذاته استمرار تحويل الهولوكوست إلـى هويـة لمواطن الدولة اليهودية ولدولة في حد ذاتها؟

في الحقيقة فان فكرتي الفرادة وكراهية الأغيار لليهود، رغم كونهمـا واسطتي العقد في أدبيات (الهولوكوست) إلا أن أيا منهما لم تبرز علـى الإطلاق في الأبحاث الأكاديمية الحقيقية حول الهولوكوست النازية.

والادعاء بفرادة الهولوكوست هو جزء مـن المنظومـة المخترعـة المتكاملة حول (شعب الله المختار) و (الشعب الكاهن) إذ ليسـت معانـاة اليهود هي ما جعل الهولوكوست فريدة بل كون اليهود، واليهود تحديـداً، هم من عانوا، بمعنى آخر الهولوكوست مميزة لأن اليهود مميزون وليس العكس. وهذا ما ينزع الأهمية عن أي حادثة مشابهة أو أكثر فظاعة عانت منها مجموعة بشرية أخرى على مر التاريخ.

وقد عبر ايزمار شورش رئيس المعهد اللاهوتي اليهـودي بسـخرية لاذعة عن ادعاءات فرادة الهولوكوست بوصفها بأنها «نسـخة علمانيـة بغيضة عن فكرة الاصطفاء (الشعب المختار)»[32].

ومن المعروف أن الحركة الصهيونية في سـعيها للاسـتيلاء علـى فلسطين استخدمت إلى جانب القوة المادية الغاشمة أدوات فكرية مزدوجة ذات طابع ديني وعلماني يعبر الخلط الانتقائي فيما بينها عن طبيعة تفكير فاشي صريح، فإلى جانب فكرة أرض الميعاد ووعود (يهوا) الغامضـة، المفتقدة لأي حس أخلاقي، أو ملمح للعدالة المتوقعة من (إله)، اسـتغلت أيضا مذهبية الهولوكوست الجامدة القائلة بكراهية الأغيار الأبدية لليهـود لتبرر ضرورة وجود دولة يهودية، ولتفسير العداء الموجه لإسرائيل، حيث وبمقتضى هذه المنظومة من الأفكار تصبح «الدولة اليهودية هي الملجـأ الوحيد أمام التفجر الآني و (المحتوم) للاسـامية الإجراميـة» ويعلـق فنكلشتاين ساخرا على هذه الدعاوى «إذا كان العالم بأجمعه يريد اليهـود أمواتا، فالعجيب في الحقيقة هو أنهم ما يزالون أحياء، بل هم على عكس قسم كبير من البشرية لا يتضورون جوعا»[33].

واستخدمت هذه الدعاوى كما ذكرنا لتبريـر العدوانيـة الصـهيونية المستمرة، عبر منح تعويض كامل لإسرائيل فإذا كان الأغيـار عـازمين كحالهم أبداً على قتل اليهود، فلهؤلاء الأخيرون كل الحق في حماية أنفسهم وبالطريقة التي يرونها (في أعقاب الاعتداءات الإسرائيلية المروعة على لبنان في العام 1996 والتي بلغت ذروتها بالمذبحة التي ذهب ضحيتها مئة من المدنيين في قانا، لاحظ الكاتب الصحفي الإسرائيلي آري شـافيت أن بإمكان إسرائيل التصرف متمتعة بالحصانة، «لأن لدينا اللجنة المعادية للتشهير ومتحف ياد فاشيم ومتحف الهولوكوست»)[34].

عقـــدة المحاصـــر

ترتبط عقدة الهولوكوست وفرادة الضحية بوثوق بعقلية الحصار، وقد كتب شاريت في يومياته[35] عن لجوء المؤسسة السياسية –العسكرية في إسرائيل إلى خلق عقلية الحصار بين المستوطنين ورفد خرافـة التهديـد العربي بإبادتهم وبالتالي تبرر العنف والعدوان «كنت أتأمل في السلسـلة الطويلة من الأحداث المفبركة والأعمال العدائية ضدنا التي اخترعناهـا والكثير من الصدامات التي افتعلناها، والتي كلفتنا الكثير من الدماء، وفي خروقات القانون الدولي التي قام بها رجالنـا وكلهـا جلبـت مصـائب خطيرة،بالمحصلة حددت مجرى الأحداث كلها وأسهمت في خلق أزمـة الأمن»هذا ما أدخل الاستيطانية الصهيونية في حلقة مفرغة مـن عقليـة الحصار التي تغذي الدوران والعدوان الذي يعمق عقلية الحصار، ووصف موشيه دايان عقلية الحصار هذه بأنها «الحلف الحيوي لنا الذي يسـاعدنا على الاحتفاظ بدرجة عالية من التوتر بين سكان إسرائيل، كمـا داخـل الجيش ومن أجل تحفيز الشباب للذهاب إلى النقب، علينا أن نصرح بأنه في خطر».

عقلية الحصار هذه تخلق ما يسميه جورج أورويل في روايته (1984) عناصر بنية ثقافة الخوف باعتبارها البنية المؤسسة على التفكير المزدوج وهي تقوم على أن تعرف وأن لا تعرف، أن تعي حقيقـة صـادقة كـل الصدق، وترى بدلا منها كذبات موضوعة بعناية، أن يكون لـديك فـي اللحظة نفسها وجهتا نظر متباينتان وأن تعتقد وتؤمن بكلتيهما وأن تستخدم المنطق ضد المنطق وتنكر الفناء وادعاءه، وتؤمن أن الديمقراطية غيـر ممكنة وفي نفس الوقت تدعي أنك حاميها[36].

ولتعزيز عقلية الحصار تلجأ الفاشية الصهيونية إلى طرق عدة نكتفي بنموذجين واضحين في مجالي الجيش والإعلام. فعنـدما تقـرر وزارة المالية القطع من ميزانية الأمن لا تمر أيام حتى يبدأ جنرالات الجيش من مختلف الأفرع بالنواح والادعاء أن «الأمن سيتأذى وأننا علـى أبـواب حرب»[37] وتتمة الاسطوانة «سنقلص الأنشطة العسكرية إذا ما قلصـتم الميزانية وسنتوقف عن التزود بأي عتاد جديد» أما الإعلام الصـهيوني فمهمته حماية المجتمع من أي معرفة للسياق الذي ينتج المآسي الفلسطينية فلا يوجد ذكر للاحتلال والإهانات وعمليات الاغتيال والاعتقال الجماعي وهدم البيوت والمجاعة التي ولدت الهجمات الانتحارية[38] وهكذا حـين يكون العقل العام مغلقا بحذر شديد فإنه ليس من الغرابة بمكـان أن يـتم قبول السياج دون شروط من قبل معظم الإسرائيليين لأنـه لـه معادلـة سحرية، هذا الجدار لذي يزيد الإحساس الهائل بالعزلة ويعـزز عقليـة الحصار التي غذت السياسات العدائية المتصلبة لجميع حكومات إسرائيل.

تلك المحرمات ترهنها الفاشية لصالحها بعد أن تجعـل مـن نفسـها الحارسة لها والمدافعة عنها ومن خلالهـا وباسـمها تفـرض سـلطتها وتمارسها، وقد لا تكتفي بالموروث من المحرمات، بل تبتكر في الغالـب محرمات جديدة أخرى مضافة وخاصة بها في لحظـة تاريخيـة معينـة وتجعل منها بمرور الوقت وبالاستثمار قوة قمع ورعب وسيطرة.

المراجـــــــع

1- www.anesi.com/fscale.html
2- لؤي خزعل جبر. نقدا للفاشية: (مدرسة فرانكفورت) وانبثاق مفهوم الشخصية التسلطية. في: جريدة المدى http://almadapaper.com/sub/02-604/n09.htm
3- د. معتز سيد عبد الله. الاتجاهات التعصبية. ط1(الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. سلسلة عالم المعرفة.1989) ص.74
4- المرجع السابق. ص69
5- المرجع السابق. ص72
6- المرجع السابق. ص75
7- سامر جميل رضوان: المتسلط. المستبد. شخصية مرضية . في:قراءات في سيكولوجية العنف. مجموعة. مجلة شبكة العلوم النفسية العربية عدد 4 أكتوبر نوفمبر ديسمبر 2004 .

8- محمد هلال الخليفي. جذور الاستبداد في الحياة السياسية العربية المعاصرة. في: الجزيرة- المعرفة-تحليلات2005
9- جان بيير كوت و جان بيير مونيه. عناصر من أجل علم اجتماع سياسي. ترجمة أنطون حمصي.ط1(دمشق: وزارة الثقافة. 1994) ص37
10- كوت و مونيه. مرجع سابق. ص73
11- إمام. مرجع سابق. ص64
12- رضوان. مرجع سابق.
13- فرويد وأدلر وآخرون. مدارس التحليل النفسي في تطور مستمر. ترجمة وجيه أسعد. (دمشق: وزارة الثقافة. 1992) ص155
14- أنطوان شلحت. أسلبة الإعلام الإسرائيلي. عرب 48. 2006/2/19
15- أرندت : مجتمع بلا طبقات في: www.Assuaal.com
16- www.ladeeni.net/forum/viewtopic.php?c=574
17- لمزيد من المعلومات عن اختبار ملغرام: http://ar.wikipedia.org
18 - أنطوان شلحت. تشريح"العصاب الجماعي الإسرائيلي. في: المشهد الإسرائيلي 4 كانون أول 2006
19- رد جرمو شيلي. العقد النفسية. ترجمة وجيه أسعد (دمشق: وزارة الثقافة السورية. 1985). ص41
20- المرجع السابق. ص 49
21- سلوى العمد. عقدة المسادا. في: الرأي الأردنية. 1991/11/5
22- نحمان بن يهودا. أسطورة المسادا. في: الكرمل. عدد67 ربيع 2001 . ص.213
23- المرجع السابق.
24- العمد. مرجع سابق
25- بن يهودا. مرجع سابق. ص214-215
26- سلوى العمد. مرجع سابق
27- ايلا شوحاط. ذكريات ممنوعة. ترجمة إسماعيل دبج. (دمشق: كنعان للدراسات والنشر، 2004) ص 119
28- نورمان فنكلشتين. صناعة الهولوكوست: تأملات في استغلال المعاناة اليهودية. ترجمة سماح إدريس. وأيمن ح حداد. ط1(بيروت: دار الآداب2001) يعتبر هذا الكتاب بجملته وثيقة هامة تخدم الكشف عما يراد الاشارة إليه في السياق. ص18
29- المرجع السابق ص8
30- أحمد مصطفى جابر. اليهود الشرقيون في إسرائيل: جدل الضحية والجلاد. دراسات إستراتيجية 92ط1(أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية. 2004)ص 20
31- فنكلشتين. صناعة الهولوكوست. مرجع سابق. ص49
32- المرجع السابق. صناعة الهولوكوست. ص50
33- المرجع السابق ص.58
34- المرجع سابق. ص85
35- الياس شوفاني. إسرائيل في خمسين عاما. المشروع الصهيوني من المجرد إلى الملموس. الجزء الأول.ط1 (دمشق: جفرا للدراسات والنشر. 2002) ص75
36- عبد الرزاق عيد. ثقافة الموت. محاضرة ألقيت في منتدى الأتاسي بدمشق www.mowaten.org
37- ميزانية الأمن تتضخم المشهد 2003/3/14
38- آيلان بابه. السياج في قلب فلسطين. المشهد الإسرائيلي 2003/1/15

Arabpsynet Reviews

Arabic Edition
www.arabpsynet.com/HomePage/Psy-Reviews.Ar.htm
English Edition
www.arabpsynet.com/HomePage/Psy-Reviews.htm
French Edition
www.arabpsynet.com/HomePage/Psy-Reviews.Fr.htm

APN eJournal

Index
www.arabpsynet.com/apn.journal/index-apn.htm
Reviews FORM
http://www.arabpsynet.com/review/RevForm.htm

Arabpsynet

www.arabpsynet.com
Arabic Edition
www.arabpsynet.com/defaultAr.ASP
English Edition
www.arabpsynet.com/defaultEng.ASP
French Edition
www.arabpsynet.com/defaultFr.ASP